الاستدلال بالظواهر الكونية

في الحوار القرآني

طرقه، وضوابطه، وأغراضه

إعداد

ا. د/ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي

استاذ الدراسات القرآنية

كلية المعلمين بالرياض

بحث أعد

للمشاركة في مؤتمر (الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي)

والذي تنظمه كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

– جامعة الشارقة خلال الفترة

٢٨ – ٣٠ ربيع الأول ١٤٢٨

١٦ – ١٨/ ٤/٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد

فقد تلقيت دعوة كريمة للمشاركة في مؤتمر "الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي" الذي أحسن الإخوة القائمون على كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة الشارقة في اختياره، وذلك أن هذا الموضوع هو موضوع العصر.

ومع وضوح المنهج الإسلامي في الحوار وتميزه إلا أن هناك من يشكك في ذلك عمداً ويغمز منه قصداً فاحتاج الأمر لجلاء الحقيقة وإعلانها، فأنشئت لذلك مراكز علمية للحوار[1] وجمعيات، وألفت فيه مؤلفات، ونشرت فيه بحوث ومقالات. وبثت برامجه الإذاعات والفضائيات وتداولته المنتديات، وعقدت له الندوات والمؤتمرات.

وهذا مؤتمر من المؤتمرات عن الحوار يتناول الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي وتعددت محاوره، ووضحت أهدافه، وجاء الباحثون إليه من أماكن مختلفة وبلدان متعددة. تنظمه كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة الشارقة ٢٨ – ١٤٢٨/٣/٣٠هـ الموافق ١٦-٢٠٠٧/٤/١٨م.

ونؤمل أن تقوم الجامعة كما وعدت بطبع البحوث على قرص ليزري CD ثم نشرها في كتاب الوقائع لتكون تلك مساهمة أخرى من مساهماتها في نشر الدين الإسلامي الصحيح والتوعية بمبادئه، وليعم النفع بهذه البحوث.

وقد رغبت في أن أشارك بكتابة بحث مختصر في المحور الثاني من محاور المؤتمر الأربعة وهو (الحوار مع الآخر في القرآن الكريم) فقد رأيت أن المحاور بحاجة إلى أن يعرف طريقة الاستدلال وكيفيته فيختار من الأدلة أقواها ومن الحجج أظهرها وأكثرها تأثيرا، فنظرت إلى حجج القرآن وأدلته وبراهينه وآياته فإذا هو يختار من الأدلة أقربها إلى عين محاوره، وأدناها إلى عقل خصومه، التي لا يملكون منها فراراً ولا يستطيعون عنها صدا فإن نظر أمامه وقع عليها، وإن التفت يمنة أو يسرة لم يخطئها، وإن نظر تحته أصابها، وإن أرتد إليه طرفه وجد في نفسه ما يكفي من الآيات والبراهين. تلكم هي السموات، والأرض، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، والنجوم، والكواكب، والشهب، والرياح، والسحاب، وغير ذلك من الظواهر الكونية.

---

(١) منها مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني في المملكة العربية السعودية، وغيرها.

ولاستدلال القرآن الكريم بالظواهر الكونية في الحوار القرآني طرق وضوابط وأغراض حاولت أن أرسم أظهر معالمها فكان العنوان الذي رأيته **"الاستدلال بالظواهر الكونية في الحوار القرآني. طرقه وضوابطه وأغراضه"** علّه يكون مساهمة مني قاصرة في هذا المؤتمر العلمي المبارك إن شاء الله.

وفق الله الجميع وسدد الخطى

وكتبه

ا. د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي
ص. ب ١٥١٧٦ الرياض ١١٤٤٤
dRFR2006 @hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

أساليب القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية:

نزل القرآن الكريم في أمة أمية، ومن أبلغ البلاغة مخاطبتهم بما يفهمون والاحتجاج بما يعرفون حيث تحيط بهم الجبال الشاهقة وقد نصبت، والأرض الممتدة وقد سطحت، والسماء الصافية وقد رفعت، ويعجبون من الإبل كيف خلقت، وهناك نجوم وكواكب وأفلاك، وأنعام وحيوانات، بل في أنفسهم ميدان للتفكر والتدبر فجاءت الحجج القرآنية والبراهين القطعية من بيئتهم التي يرونها وبمداركهم التي يعرفونها وتنوعت أساليب الاستدلال بهذه الظواهر الكونية إلى أنواع أذكر منها أربعة:

١- أسلوب الأمثال:

إذ يضرب الله الأمثال بهذه الظواهر الكونية للفت الأنظار إليها والتفكر فيها قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ٢٧-الزمر، وتلك الأمثال ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ٢١: الحشر ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ٢٥: إبراهيم ويستثير الهمم ويحفز العقل للتأمل فيها: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٤٣ العنكبوت.

ويؤكد على قوة هذه الاحتجاج وأثره إلا على من شأنه الجدال ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ ٥٤: الكهف: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ ٨٩: الإسراء.

وكثر ضرب الأمثال بالظواهر الكونية في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ الآية ١٧-٢٠: آل عمران ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ ١٧-١٩ البقرة ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ ١٧٦: الأعراف ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ ٤٥: الكهف.

٢- أسلوب الاستفهام:

وقد يكون عرض هذه الظواهر الكونية بأسلوب الاستفهام وفيه إثارة للانتباه، وحفز لمعرفة الإجابة سواء كان استفهاماً تقريرياً أو إنكارياً أو غير ذلك فغايته إقامة الحجة والبرهان على المخاطبين.

والأمثلة على هذا النوع كثيرة جداً كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ ﴾ نوح ١٥-١٦، وقال سبحانه: ﴿ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ٥٩-٦٠ النمل، وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ ٨١: يس ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ الآية ٢٩: لقمان ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ ﴾

الحج: ٦٣، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾ ١٠ – ١١: لقمان.

٣- أسلوب القسم:

وهو من أقوى أساليب التوكيد حيث يقسم الله بما شاء من مخلوقاته لبيان عظمتها وعظم شأنها والاهتداء بذلك إلى عظمة خالقها وموجدها ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ ٧٥ – ٧٦ الواقعة ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ٣٨ – ٣٩:

الحاقة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝﴾ ١-٢: الشمس ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ ﴾ ١-٢: الليل ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ ﴾ ١: النجم ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝﴾ ١: **الذاريات** ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝﴾ ١: الصافات.

وأقسم ببعض مخلوقاته في أحوالها المختلفة لزيادة التفكر فيها فأقسم بالليل إذا أدبر وإذا عسعس وبما وسق وإذا يسر وإذا يغشى وإذا سجى وأقسم بالسماء ذات الحبك والسقف المرفوع وذات البروج والطارق وذات الرجع وما بناها وبالقمر إذا اتسق وإذا تلاها وبالنجم إذا هوى والنجم الثاقب وبالخنس وبالجوار الكنس وغير ذلك كل هذا تنويع وتقليب للبراهين وتوثيق للحجج والأدلة.

٤- أسلوب الحوار:

وهو الأسلوب الذي يقوم عليه بحثنا هذا.

تعريفه:

ذكر ابن فارس أن من معاني حور الرجوع [١] وقال الزمخشري أن "حاورته: راجعته الكلام"[٢] وأكد ذلك ابن منظور بأن معنى حور: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء"[٣].

ويظهر من هذا أن الحوار هو ترجيع الكلام بين طرفين وإعادة كل منهما الكلام للآخر حتى تنقطع حجته ويسلم بحجة صاحبه.

وورد الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

١- ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ۝ ﴾ ٣٤: الكهف.

٢- ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ۝ ﴾ ٣٧: الكهف.

٣- ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝ ﴾ ١: المجادلة.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، مادة (حور) ص٢٨٧.

(٢) أساس البلاغة: الزمخشري: ص٩٨ مادة (حور).

(٣) لسان العرب: ابن منظور مادة (حور) ج٣، ص٢١٧.

ويظهر من هذا أن الحوار في القرآن الكريم هو مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين والأخذ والرد فيه.

وعرفه بعضهم تعريفًا حسب الاصطلاح المعاصر بقول أن الحوار: "نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب"[(١)] ويبدو لي أن الحوار بهذه الصفات والخصائص هو ما يكثر الحديث عنه والدعوة إليه في هذه العصور وهو الذي دعا إليه الإسلام منذ قرون ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ ١٢٥: النحل ﴿ ۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ٤٦: العنكبوت.

ونهى عن الجدال بالباطل وبلا دليل ولا برهان قال تعالى: ﴿ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ﴾ ٧١: الأعراف ﴿ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ ٥٦: الكهف ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ ٣: الحج ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ ٨: الحج و٢١: لقمان ﴿ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ ٥: غافر.

ونهى عن الجدال بعد ظهور الحق وتبينه ﴿ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ٦: الأنفال ﴿ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ ١٣: الرعد.

فلابد أن يقوم الحوار والجدال على دليل صحيح سليم يسلم به الخصم ويقتنع به بلا مكابرة، فالدليل أول ما ينبغي استحضاره والعناية به وهو من مقتضيات العلم - الذي هو شرط الحوار – كما أسلفت، فالإقناع لابد أن يكون بالحجة والبرهان، والرد بلا دليل بمنزلة هدم العلم بالشك المجرد. وسوق الحقائق المجردة أقل تأثيراً في النفوس من سوقها مستندة إلى الشواهد والبراهين[(٢)].

---

(١) أصول الحوار: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ص٦.

(٢) انظر الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة: يحيى بن محمد زمزمي ص٣٠٩.

ولابد من صحة الدليل والدلالة وبهذا جاءت الأدلة القرآنية في الحوار القرآني مستندة إلى مسلمات لا تقبل الشك وبراهين لا تقبل النقد ألم تر إلى إبراهيم عليه السلام حين حاجه الذي حاجه في ربه ورد مغالطاً دعوة إبراهيم عليه السلام إلى الإيمان بأن الله هو الذي يحيي ويميت فزعم أنه هو يحيى ويميت فعدل إبراهيم إلى حجة لا يمكنه اللجاج فيها ولا المغالطة ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ ٢٥٧: البقرة.

وجاء الدليل القرآني في الحوار مع كفار قريش ومن معهم مستنداً إلى أدلة قاطعة كالاستدلال بالظواهر الكونية التي يرونها وتحيط بهم أنى قلبوا أبصارهم وكان لهذا المنهج في الاستدلال طرقه، وضوابطه وأغراضه.

طرق الاستدلال بالظواهر الكونية في الحوار القرآني:

جاء الاستدلال بالظواهر الكونية بطرق متعددة أذكر منها:

١- الاستدلال بخلقها:

وهذا النوع من الاستدلال من أقوى الأدلة وأظهرها، وهو الذي يثير – عند الإيمان به – إلى الإذعان والانقياد والاستسلام لوضوح الحجة وقوة البرهان ولذا كان هذا النوع من الاستدلال أغلب الأنواع وأكثرها.

كما يغلب هذا النوع من الاستدلال في مقام الحوار والدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ونفي ما عداه من آلهتهم المزعومة، ولذا نجد أول استدلال في القرآن بالآيات الكونية يرد في مقام الدعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ٢١ – ٢٢ : البقرة.

ونجد في هاتين الآيتين حشداً من الأدلة الكونية:

١- الاستدلال بخلقهم ومن قبلهم.

٢- جعل الأرض فراشاً لهم.

٣- جعل السماء بناء.

٤- إنزال الماء من السماء.

٥- إخراج الثمرات به.

وكأن في هذا الحشد من البراهين كتماً لأنفاس المعاند أو الشاك وإلجاماً له بالحجة بل الحجج التي لا يستطيع مقاومتها، إن فر من واحدة استقبلته الثانية وإن فر منها لاقته الثالثة فلا مفر من التسليم إلا لمعاند مستكبر لا تنفع معه حجة ولا يسلم لبرهان.

وكأن في ختم الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إشارة إلى أنهم يعلمون أنه وحده هو الذي خلقهم وخلق من قبلهم، وأنه هو الذي جعل لهم الأرض فراشاً وجعل لهم السماء بناء وأنه هو الذي أنزل الماء من السماء وأمر الأرض بالإنبات وأخرج لهم الثمرات وأنهم يعلمون أنه هو الذي خلق ذلك وحده سبحانه ليس معه شريك ولا ند إذاً فما بالهم وقد علموا ذلك يجعلون له شريكاً ونداً بل شركاء وأنداداً إن علمهم حجة عليهم والشرك بعد هذا العلم ضلال بعيد وظلم عظيم.

ولذا كرر هذا المعنى في القرآن كثيراً ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ٤: الأحقاف ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾ ٩: فصلت ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ٢٥: لقمان.

٢- الاستدلال بملكها:

وهو ملك التصرف المطلق التام الذي لا يكون إلا لله تعالى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ ١: الملك.

وقد كان المشركون مضطربي العقيدة فهم لا ينكرون الله ولا ينكرون أنه مالك السموات والأرض ومع هذا يشركون معه آلهة مدعاة فهو هنا. يأخذ بمسلماتهم التي يقرون بها ليصحح ذلك

الاضطراب في العقيدة ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقودهم إليه مسلماتهم ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ٨٤ – ٨٩ المؤمنون.

وتتالت الآيات المؤكدة وتكرر هذا السؤال والإخبار في مواضع عديدة ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ١٠٧: البقرة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ ١٥٨: الأعراف ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ٣١: يونس ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ ٢: الفرقان.

وأدرك فرعون ما يوجبه الملك من عبودية وطاعة فنادى قومه ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ ٥١: الزخرف فخلط بين ملك المنفعة القاصر الناقص المنقطع وملك التصرف المطلق الخاص بالله تعالى وهي دعوى لا تخفى إلا على ناقص العقل والإدراك ولذا وصف الله أتباعه بقوله سبحانه: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ٤٥: الزخرف. إن ملك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون أمر قريب مشهود لقومه يبهرها وتستخفها الإشارة إليه فأما ملك السموات والأرض وما بينهما – ومصر لا تساوي هباءة فيه – فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه وهم لم يدركوا ذلك وغرها

البريق الخادع القريب من عيونها ولم تسمُ عقولهم إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد(١) فأطاعوه.

٣- الاستدلال بالتصرف فيها وتدبيرها:

فالله سبحانه وتعالى هو مدبر هذا الكون كله ومصرفه بسماواته وأراضيه ونجومه وكواكبه وأفلاكه وليله ونهاره وريحه وسحابه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ .

إن ما يقوله علماء الفلك والأرصاد عن أسباب هبوب الريح وتحولها من جهة إلى جهة ونشأة ذلك السحاب المحمول على الهواء لا يكفي إن السر الأعمق هو سر هذه الأسباب نفسها سر خلق الله هذا الكون بهذا الترابط المحكم وبهذه النسب وبهذه الأوضاع التي تكفل بإذن الله الحياة بتوفير تلك الأسباب لها من رياح وسحاب ومطر وتربة والتي لو اختلت واحدة منها ما نشأت الحياة أو ما سارت هذه السيرة إن القضية هنا قضية سر التدبير والتصريف الدقيق الذي يحتاج تأمله والتفكر في سره إلى عقول تعي وقلوب تفقه (٢).

وتمضي الآيات وآيات في الدعوة إلى التأمل والتدبر في خلق هذا الكون وتصريفه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ ٤٣ – ٤٤: النور ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ٣-٦: الجاثية وفي تدبيرها ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

---

(١) انظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج٥، ص٣١٩٣.

(٢) انظر المرجع السابق: سيد قطب، ج١، ص١٥٣.

﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ ﴾ ٣: يـــــــونس ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ٣١ – ٣٢: يونس ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴾ ٢: الرعد ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ ٥: السجدة.

أرأيتم هذا العرض لتصريف الكون وتدبيره وتسخيره وما يؤدي التفكر فيه وتدبره بأصحاب العقول المتفكرة والألباب المتدبرة والقلوب المتفهمة إلى الإيمان والإذعان، والتقوى والعرفان.

وتأمل آيات الجاثية الثلاث السابقة كيف جمعت في الدعوة إلى التفكر في هذا الكون بين الإيمان واليقين والعقل أو بين المؤمنين والموقنين والعاقلين وكأن في هذا إشارة إلى تلازم هذه، وكأن العقل الحق المتفكر المتدبر لابد أن يؤمن بل ويوقن بخالق هذا الكون والمتصرف فيه إنها دعوة بل دعوات إلى التفكر إنها لا تحملك على اعتقاد تنقصه الحجة، أو إيمان ينقصه الدليل، أو يقين يفتقد البرهان.

إنها تدعوك مجرد دعوة إلى إعمال ذهنك وتشغيل قدراتك لتولد الإيمان في داخلك ذاتياً بتوفيق الله وإلهامه ولا يبقى للمخاطب بعد ذلك حجة فالأمر أوكل إليه وأسند وليتحمل عاقبة أمره وسوء تدبيره إن لم يفعل.

٤- الاستدلال بنظامها وحركاتها:

فهذا الانتظام الدقيق والحركات المنتظمة التي لا تختلف، وهذا النظام المحكم المتقن الذي لا يختل، وهذا البناء التام الذي لا فطور فيه دليل على قدرة مدبرها ومسيرها ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ

يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ٣٧ – ٤٠ يس. لن أقف عن هذه الصورة الرائعة والمشهد الأخاذ الذي يتكرر كل يوم مرتين صباح مساء ولكن الوقفة الخاطفة عند هذا المشهد الذي لا يتوقف ولا ينقطع ففي الوقت الذي يكون فيه انسلاخ النهار من الليل وغشيان الظلمة في مكان يكون انبثاق النور في مكان آخر وهكذا يسير الحدثان في نقطتين متقابلتين من الأرض هذا في أقصى المشرق وذاك في أقصى المغرب وهكذا يدوران بلا توقف ولا يلحق هذا بذاك والشمس تجري بينهما والقمر يتنقل بين منازله فلا الشمس تدرك القمر ولا الليل يسبق النهار إن خلف هذا الجمال الرائع لهذه الصورة، والنظام المحكم لهذه الحركات المتتابعة يداً تنظمه وتحركه فإن لم تكن يد الله سبحانه وقدرته فمن؟ ذلك تقدير العزيز العليم.

ثم تتسع الصورة وتتجاوز الكرة الأرضية وشمسنا وقمرنا إلى السموات السبع ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ ٣-٤: الملك. إن هذا النظام المتقن والبناء المحكم ما كان ليكون لو كان فيهما آلهة إلا الله ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ٢٢: الأنبياء. ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ ٩١: المؤمنون. إن في انتظام الكون وسلامته من الفساد أو أدناه وشمول قدرة الله وكمال ملكه سبحانه دلالة على ألوهيته سبحانه ووحدانيته.

٥- الاستدلال بصفاتها وخصائصها:

ولعظمة هذه المخلوقات ضلت طائفة من البشر فعبدوا الشمس أو القمر أو النار أو بعض الكواكب والنجوم جهلاً وقصوراً في الإدراك، إذ أن هذه المخلوقات مع عظمتها لا تخلو من جانب قصور فيها أراده الله لها حتى لا يشاركه أحد من خلقه في عظمته المطلقة فالليل والنهار والشمس والقمر تأفل فلا يدوم بقاؤها، وتغيب فلا يدوم حضورها وهذا ما احتج به إبراهيم عليه السلام متدرجاً بقومه ليكشف لهم ضلالهم ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ

﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ٧٦-٧٩: الأنعام.

وقال الله سبحانه عن حجة إبراهيم ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ ومع قوة الحجة وظهورها حاجه قومه واستنكر إبراهيم عليه السلام مكابرتهم واحتجاجهم الباطل ولم يجدوا حجة يبطلون به قوة احتجاجه إلا أن يلقوه في النار التي نجاه الله منها، وشأنهم شأن كل معاند مستكبر لا يقبل الحقيقة.

وبين في موضع آخر أن الليل والنهار والشمس والقمر من مخلوقات الله وأن السجود ينبغي أن يكون لخالقهن المتصرف فيهن ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ٣٧: فصلت.

ضوابط الاستدلال بالظواهر الكونية في الحوار وقواعده:

حتى يحقق الحوار أغراضه ويؤتي ثماره لابد أن تكون له ضوابط وقواعد كي لا يخرج عن حَدِّ الواقعية، ويحيد عن الطريق فيضل بصاحبه ومحاوره وعلى المحاور أن يتلمس الطريق الأسلم، والمنهج الأحكم في السير بمخاطبه حتى يرفق به ويقتاده إلى الصواب منقاداً مُسلِّماً.

ونلتمس من القرآن الكريم في حواره واستدلاله الضوابط الحكيمة في الحوار ليس في وسع هذه العجالة استقصاؤها ولا استيعاب وصف كل منها وإنما يذكر منها:

١- الدليل:

وهو أول ما يطالب به ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ ١١١: البقرة ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ ﴾ **٢٤: الأنبياء** ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ ١١٧: المؤمنون ومن لا يملك الحجة والدليل فليس له حق أن يجادل ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ٦٦: آل عمران.

ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام يبادرون لإظهار حجتهم وبرهان صدقهم ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ ٧٣: الأعراف.

ولعثيهم في الأرض فساداً وتنكبهم عن الحق مع ظهوره استكباراً عقروا الناقة عتواً عن أمر ربهم فاستحقوا عذاب الله فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين.

وهذا شعيب عليه السلام ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ٨٥: الأعراف.

وموسى عليه السلام قال الله تعالى له: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ٣٢: القصص وهي سنة الله في بعثة الرسل يظهر على أيديهم حجتهم.

وجاء الحوار القرآني مقدماً الدليل والبرهان من الظواهر الكونية موحية بعظمها عظم مكابرتهم ومعاندتهم فجاءت الحجة حسب حالهم فكلما زاد العناد والاستكبار عظم الدليل والبرهان لذا كانت الاستعانة بالظواهر الكونية العظيمة في هذا المجال أرفق طريق لردع الخصم وإسكاته [1].

ومن الأمثلة على ذلك حوار إبراهيم عليه السلام مع الذي حاجه في ربه بعد أن أوتي الملك فاستعلى وتكبر وادعى شيئاً من صفات الألوهية والربوبية فزعم أنه يحيى ويميت ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ ٢٥٨: البقرة.

فقد فهم إبراهيم عليه السلام شخصية المحاور وعلم أنه مغتر بملكه معمى عن الحقيقة متوهم أنه إله، واستمرار الحوار معه في ظل هذا التوهم والغرور وظل التحايل لا يفيد إلا الخصم الذي سيبدو الأمر حينها كعرض لملكه وعزه.. لذا لجأ إبراهيم عليه السلام إلى الدليل الرادع والمفحم للخصم القاطع لهواه ونشوته في استعراض ملكه.

واختار إبراهيم عليه السلام من الكون الظواهر العظمى المملوكة لله ولا دخل للإنسان فيها ويطالبه بموجب دعواه بإظهار قدرته في الفلك الدائر المسخر لمشيئة الله لتكون مماثلة لقدرة الله [2].

ووصف سيد قطب رحمه الله تعالى ذلك الموقف بقوله: "عندئذ عدل عن السنة الكونية الخفية إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية في قوله: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ إلى طريقة التحدي وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر

---

(١) منهج القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية، د. ليلى الزامل ص٧١.

(٢) المرجع السابق: ص٧٢.

ويتعنت ويجادل في الله ليريه أن الرب ليس حاكم قوم في ركن من الأرض إنما هو مصرف هذا الكون كله"[1].

٢- التناسب بين الظاهرة الكونية وموضوع الحوار:

لابد في المناظرة والجدل من المناسبة بين الدليل والمدلول، والأمر كذلك هنا إذ المناسبة بين الظاهرة الكونية وموضوع الحوار ظاهرة وواضحة لأن إيراد الظواهر أو الأدلة غير المناسبة ولو كشاهد يؤدي بالحوار إلى الخروج عن حده، والانحراف عن مساره إلى متاهات وجدال أو خصام لا ينتهي بل ربما تكون سبباً في ضعف الحجة وانتصار الخصم بغير الحق [2].

وكمال التناسب أن يراعي فيها ثلاثة أمور:

١- مناسبة الموضوع.

٢- مناسبة طبيعة الحوار.

٣- مناسبة التوقيت.

وكلما تحققت هذه الأمور في المناسبة قويت الحجة ونجد هذه الضوابط الثلاثة مجتمعة في كل الحجج القرآنية بل تزداد قوتها في وجازة العبارة.

فحين احتج اليهود على تغيير القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام رد الله عليهم بكلمات ثلاث جمعت كل وجوه القوة ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ فأبطل الدعوى وأبطل أثرها الذي أحدثه اليهود، وأنشأ التصور الصحيح والاعتقاد السليم للأماكن والجهات كل هذا بثلاث كلمات[3] وحكى الله الشبهة والرد عليها بقوله سبحانه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [4].

فاحتج عليهم سبحانه بملكه لظاهرتين كونيتين المشرق والمغرب فأينما توجه المتوجه فثم وجه الله ولا يبقى للجهة إلا أنها أمر تعبدي يهدي من يشاء من عباده إليها وإلى الصراط المستقيم [5].

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ج١، ص٢٩٨.

(٢) منهج القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية، د. ليلى الزامل، ص٦٨.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٦٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٢.

(٥) سورة الشعراء: الآيات ٢٣ ــ ٢٨.

وفي الجدال في موضوع (الربوبية) بين موسى عليه السلام، وفرعون قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ وذلك أن فرعون قال قبل ذلك ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1] فاختار موسى عليه السلام في رده ما يناسب هذه الدعوة وحال المدعي الذي رأى في ملكه مصر وجريان الأنهار من تحته ولحكمه فئة من البشر في قطعة من الأرض صغيرة أنه ملك عظيم فأغراه ذلك بإدعاء الربوبية فجاء الرد القاطع بأن الربوبية الحقة الكاملة لله سبحانه فهو عز شأنه:

١- رب المكان ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ .

٢- ورب الناس الحاضر منهم والسابقين ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

٣- ورب التصرف في الكون ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ .

فاكتملت له الربوبية أما ما دونها فربوبية زائفة ودعوى كاذبة كدعوى الذي حاج إبراهيم عليه السلام في أنه يحيى ويميت بقتله لبضعة نفر أو إحيائه لهم بعفوه عنهم.

وترى هنا المناسبة ظاهرة بين موضوع الربوبية والاحتجاج بالظواهر الكونية السموات والأرض والمشارق والمغارب وملك ذلك كله.

٣- التدرج:

وللقدرات العقلية كافة كطاقة القدرات الجسمية إذ لا يمكن للأجسام أن تقفز للدرجة العاشرة دون أن تمر على ما قبلها أو بعضه وللقدرات العقلية نطاقها وطاقتها فيحسن التدرج فيها في الأدلة حتى تصل سالمة مطمئنة إلى الحقيقة.

والتدرج يكون في الكليات وفي الجزئيات فحين بعث رسول الله ﷺ معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن قال له: إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا الصلاة فأخبرهم

---

(١) سورة النازعات: الآية: ٢٤.

أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا اطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس"[1] ويكون كذلك في الجزئيات في التشريع الواحد.

ونجد التدرج في الحوار القرآني في سوق الحجج والبراهين والتدرج في ذلك ويظهر جلياً في تدرج إبراهيم عليه السلام في سوق الحجج مع قومه حيث ينتقل بهم من حال إلى حال حتى يوصلهم إلى الحقيقة الناطقة بتوحيد الله وإبطال الشرك قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾[2] وهذا على وجه التسليم الجدلي مع قومه ليصل بهم إلى الإيمان بالله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾[2] وهو عليه السلام كان يعلم أفوله قبل ذلك لكنه التدرج في الاستدلال وبهذا أبطل عبادة الكواكب التي يعبدون، وانتقل بعدها إلى القمر ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ثم إلى الشمس ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[2] فانظر إلى هذا التدرج والتسليم الجدلي والاستقراء لمعبوداتهم أبطل عبادة آلهتهم من الكواكب والقمر والشمس ثم أعلن كرهه لهن ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ ووصف من يعبدهن بالضلال ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ثم تبرأ منهن ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ وأعلن توجهه لله وسبحانه ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ فاستدل عليه السلام بهذه الظواهر الكونية وأفولها لنفي ربوبيتها والتي يعتقدها قومه وأثبت الربوبية لله وحده متدرجاً بهم من نفي إلى نفي آخر إلى انتفاء ربوبية آلهتهم والإيمان بالله وحده.

وظهر هذا كثيراً في حوارات القرآن حيث يبدأ بما يقرون به ويسلمون كقوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ

---

(١) رواه البخاري كتاب الزكاة: باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة ص٢٣٦، رقم الحديث ١٤٥٨، ورواه مسلم كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين ص٣٢ رقم الحديث ١٢٣ – ٣١.

(٢) سورة الأنعام: الآيات ٧٦ – ٧٩.

وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢).

٤- البدء بالأهم فالأهم:

وهذا امتداد للضابط الذي قبله التدرج فهو يتدرج بهم ويبدأ بالدليل المهم وينتقل منه إلى الأهم.

وفي الأمثلة المذكورة للتدرج أيضا نجد هذا التدرج يبدأ بالمهم وينتقل إلى الأهم فإبراهيم عليه السلام بدأ بالكوكب ذي النور الخافت ثم انتقل بهم إلى القمر وهو أظهر من الأول ثم انتقل إلى الشمس التي يتلاشى نور القمر عند ظهورها فالشمس أضخم وقال عنها (هذا أكبر) لكنها لم تسلم من آفة الآيتين قبلها فأفلت كما أفلا فهي كلها غير مستحقة للعبادة وتكرر غيابها واطراده دليل على خضوعها كلها لله الواحد الأحد الذي يستحق أن يتوجه إليه فإعلان التوحيد بعد هذا التدرج والترتيب يجد تجاوباً في النفوس وقبولاً في العقول (٣).

وفي الآيات الأخرى السابقة ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا ﴾ الآيات وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ ﴾(٤) وقوله سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾(٥) جعل الله تعالى الإقرار

---

(١) سورة المؤمنون: ٨٤ – ٩٢.

(٢) سورة يونس: ٣١ – ٣٢.

(٣) منهج القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية، ليلى الزامل، ص٧٥.

(٤) سورة إبراهيم: ١٩.

(٥) سورة العنكبوت: ٦١.

بخلق هذه المخلوقات الأرض والسموات والشمس والقمر والعرش العظيم القاعدة التي يرتكز عليها الحوار والتي ينطلق منها للوصول إلى الهدف المنشود(١).

٥- ضرب الأمثلة:

وتقريب المعاني إلى الطرف الآخر بضرب المثال من أقصر الطرق إلى الإقناع، وأقوى تأثيراً في النفوس، وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣).

ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٤).

ففي هذه الآيات ضرب الله مثلين للمنافقين مثلاً نارياً والآخر مائياً فشبه حالهم من استضاءتهم بنور الإيمان ثم الخروج منه إلى ظلمة الكفر بمن كان في ظلمة فأوقد ناراً فلما أضاءت له الطريق زال عنه نورها فعاد إلى الظلمة بل الظلمات وعدم الرؤية، والنار المحرقة. أو هم كمن يسير في ظلمة حالكة ومطر غزير ورعد وبرق وصواعق تصم الآذان حتى أن السائر فيه يجعل أصابعه في أذنيه خوفاً من الموت وحتى ليكاد البرق من شدته مع شدة الظلمة وسرعة التنقل بين الضوء والظلمة أن يخطف أبصارهم وهم يطلبون الخروج من هذا الموقف فكلما أضاء لهم وتبينوا الطريق خطوا وإذا أظلم عليهم توقفوا عن السير حيث لا يرون الطريق فهو كحال المنافقين الذين سمعوا الحق والقرآن وما فيه من الوعيد والزواجر وربما أصابهم شيء من الخير

---

(١) منهج القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية: ليلى الزامل، ص٧٦.

(٢) سورة إبراهيم: الآية: ٢٥.

(٣) سورة الحشر: الآية: ٢١.

(٤) سورة البقرة: الآيات ١٧ ــ ٢٠.

والغنيمة فهذا الضياء الذي يمشون فيه ولكن إذا أصابهم بلاء رجعوا عن دينهم وارتدوا كفاراً فهذا ذهاب الله بنورهم وعودتهم إلى الظلمات(١).

وفي الرد على من زعم عدم إحياء العظام بعد أن ترم قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ (٢).

فاستدل بالقدرة على خلق السموات والأرض على القدرة على أن يخلق مثلهم وهو الخلاق العليم.

٦- التعريض والتلميح:

الأصل في سوق الأدلة وبسطها التصريح والتوضيح إلا أن هناك أحوالاً يكون التلميح فيها أبلغ من التوضيح والتعريض أبلغ من التصريح.

ومن ذلك أن يكون المسؤول عنه لا فائدة في معرفته ولا أثر لإدراكه في الحياة العملية وأن الهمة ينبغي أن توجه إلى ما فيه فائدة في حياتهم كقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ (٣) فقد سألوا عن هذه الظاهرة الكونية التي يبدو فيها القمر بدراً ثم يصغر حتى يصبح هلالاً ويستمر حتى يعود كالعرجون القديم ثم يدور دورته ويبدأ في الزيادة ولكن الجواب جاء بالتوجيه إلى الاستفادة من هذه الظاهرة المطّردة بتوظيفها في عباداتهم كالحج ومواقيتهم وتواريخهم التي يضبطون بها حياتهم فكان في الجواب إعراض عن قصدهم الذي لا فائدة لهم فيه مباشرة وتلميح إلى أخذ ما يهمهم فيه وما يتعلق بحياتهم منه.

وحين حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام سأله قومه: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ كان جوابه ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ فقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ

(١) انظر تفسير ابن سعدي ص٢٧ والحوار آدابه وضوابطه: يحيى زمزمي ص٣٦٦.
(٢) سورة يس: ٧٨ – ٨١.
(٣) سورة البقرة: الآية: ١٨٩.

﴾ تعريض من إبراهيم عليه السلام بآلهتهم التي لا يستطيع كبيرهم فعل ذلك فضلاً عن من دونه من آلهتهم وهذا كمن قال لك وقد أبدعت في عمل أأنت الذي فعلت كذا فقلت وصاحبك لا يحسنه ولا يستطيعه بل أنت الذي فعلته وكأنك قصدت بهذا الجواب استخراج إقراره بفعلك[1] وأن يكون نابعاً من ذاته لا من ذاتك ومن قوله لا من قولك وهذا أبلغ في الاحتجاج فهو يدرك أنه ليس من فعله والأمر دائر بينكما فتعين أنه من فعلك، وقوم إبراهيم يعلمون قطعاً أن أكبرهم لم يفعل ذلك وأدركوا مغزى إبراهيم عليه السلام فلم يجدوا حجة يردون بها على قوة حجته إلا ناراً حسبوها كافية لإحراق حجته ولكن الله أطفأها فالله متم نوره ولو كره الكافرون.

أغراض الاستدلال بالظواهر الكونية في الحوار القرآني:

وشمل الاستدلال بالظواهر الكونية في القرآن الكريم كل الجوانب التي يحتاجها البشر للخروج من الضلال إلى الهدى ومن الظلمات إلى النور، لأن القرآن الكريم يحاور الإنسان في قضايا تشغل باله ولا تصل إليها حواسه وأدوات ووسائل بحثه كمعرفة الله، وحقيقة الكون، وخلق الإنسان ووظيفته في الحياة ومصيره[2].

وبعض تلك القضايا ليس بمستطاع البشر إدراكها دون نور النبوة والوحي الإلهي فجاء القرآن الكريم باسطاً لدقائقها وعارضاً لحججها حتى أضحت واضحة لا ريب فيها لذي بصيرة.

وهذه المقاصد من الاستدلال بالظواهر الكونية في الحوار القرآني والأغراض كثيرة نذكر منها:-

١- الاستدلال بذلك على الإيمان بالله تعالى:

والإيمان بالله تعالى هو أصل الأصول، والغرض الأول من أغراض الحوار القرآني واستدل له القرآن الكريم بأدلة كثيرة متنوعة ومنها الاستدلال بالظواهر الكونية في آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [3].

(١) انظر تفسير الكشاف: الزمخشري ج٢، ص٥٧٧.

(٢) مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني: د/ أحمد سليمان البشاير، ص١٠.

(٣) سورة الرعد: الآية: ١٦.

وقال سبحانه ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَىۡءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[1] ثم قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلۡ إِنِّى نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

٢- الاستدلال بالظواهر الكونية على تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الولد:

وهذا مثال من صور كثيرة في الاستدلال بالظواهر الكونية على صفات الله تعالى قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبۡحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾[2] .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى في تفسيرها وبيان العلاقة بين نفي الولد وخلق السموات والأرض: (في الآية تنزيه الله أن يكون له ولد لأن الله غني عن كل شيء، وهو مالك كل شيء، والولد إنما يتخذه من كان محتاجاً مفتقراً أما الرب – عز وجل – فإنه ليس بحاجة إلى أحد، لأن له الملك المطلق بل له ما في السموات والأرض"[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبۡحَٰنَهُۥ ۚ بَلۡ عِبَادٌ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقًا فَفَتَقۡنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَىۡءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِى

(١) سورة غافر: الآيتان ٦١ – ٦٢.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ١١٦ – ١١٧.

(٣) أحكام من القرآن الكريم: للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ص٤١٩.

ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (1).

وعلى وحدانيته سبحانه ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾(2).

٣- الاستدلال بالظواهر الكونية في الحوار القرآني لإثبات أن القرآن الكريم كلام الله تعالى. ونقصد تلك الآيات التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم المتعلقة بذكر الحقائق الكونية المبثوثة في هذا الوجود بعوالمه العلوية والسفلية والتي سيقت من أجل الاستدلال بها على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى(3) قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (4).

وانظر إلى هذا التنازل معهم عن الحقيقة القطعية إلى التسليم الجدلي باحتمال تحقيقها ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ إنه احتمال يستحق الاحتياط فماذا أخذوا لأنفسهم من وسائل الاحتياط، ويدعهم بعدئذ يفكرون ويحسبون ويتجه إلى الكون العريض يكشف عن بعض ما قدر فيه – وفي ذوات أنفسهم – من مقادير(5).

إنه إغراء لهم بالتأمل والتفكر وطعم لهم يؤملون أن يجدوا في تأملهم ما يستندون إليه أو يحتجون به لكنهم ما إن يبدأوا في التفكر في الآفاق وفي أنفسهم حتى تظهر لهم الحقيقة القاطعة ووعد الله ما يزال قائماً فلا زلنا نرى في كل يوم وتتجدد المكتشفات العلمية في الآفاق وفي أنفسنا ما يوقف المنصف وطالب الحقيقة على الحقيقة.

٤- الاستدلال بالظواهر الكونية في الحوار القرآني لإثبات قدرته سبحانه على خلق الإنسان.

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٢٦ – ٣٣.

(٢) سورة الأنبياء: ٢٢.

(٣) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم: د. خليل بن عبد الله الحدري، ص٣٢٠ – ٣٢١.

(٤) سورة فصلت: الآيتان: ٥٢ – ٥٣.

(٥) في ظلال القرآن الكريم: سيد قطب، ج٥، ص٣١٣٠.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١).

وتأمل هذا الاستدلال وهذا الاحتجاج القرآني بخلق السموات والأرض على خلق الإنسان ابتداءً وعلى بعثه بعد ذلك للبشر أجمعين وتأمل الفاصلة ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ والسموات والأرض خلق عجيب هائل دقيق هذه الأرض التي نعيش عليها ويشاركنا ملايين الأجناس والأنواع ثم لا نبلغ نحن شيئاً من حجمها، ولا شيئاً من حقيقتها هذه الأرض تابع صغير من توابع الشمس وهذه الشمس واحدة من مئة مليون في المجرة الواحدة التي تتبعها شمسنا وهذه المجرد واحدة من ملايين المجرات عد الفلكيون منها حتى اليوم مئة مليون مجرة بمناظيرهم المحددة هذا الفضاء الذي تسبح فيه تلك الملايين التي لا يحصيها العد كأنها ذرات صغيرة لا نحاول تصويره ولا تصوره فذلك شيء يدير الرؤوس ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ (٢) وهذا التباين بين المخلوقات إنما هو بمقاييسنا نحن أما أمام قدرة الله فيتساوى فيها خلق الكبير وخلق الصغير كلها سواء أمام الكلمة الإلهية كن فسواء كان هذا الشيء سماء أو أرضاً أو يكون بعوضة أو نملة لا يملك إلا أن يكون إن هذا التأمل كفيل بأن يسلم له العاقل بقدرة الله سبحانه على الخلق وعلى كل شيء.

٥- الاستدلال بالظواهر الكونية في الحوار القرآني على البعث:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟

(١) سورة يس: الآيات: ٧٧ ــ ٨٣.

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب، ج٥، ص٢٩٧٨ (بتصرف).

أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾[1].

ويقال في البعث ما قلناه في خلق الإنسان ابتداء فبعثه كخلقه.

(١) سورة الحج: الآيات ٥ ــ ٧.

الخـاتمـة:

لعلـي فـي هـذه العجالـة استطعت أن أرسم الخطـوط العريضـة لمنهج القرآن الكريم فـي الاستدلال بـالظواهر الكونيـة فـي الحوار التـي اقتصـرت فيهـا علـى محاولـة استكشـاف طـرق هـذا الاستدلال وقد أجملت الحديث عنها في خمس طرق ثم بينت ضوابط هذا الاستدلال فاستخرجت منها ستاً وذكرت من الأغراض بهذا الاستدلال خمسة، ولعل ما ذكرته هنا أو هناك لا يراد به الحصر ولا يقصد فطاقتي أقصر من استيعاب ذلك أو إدراكه ولكنه ضرب المثال الذي يوقف على عظمة هذا المنهج القرآني إذ هو يستند إلى ما هو أعظم وأعمق ألا وهو الإعجاز القرآنـي الشـامل المتجدد الذي لا يحيط به مخلوق وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المـراجـع:

١- أحكام من القرآن الكريم: الشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار طويق، الطبعة الأولى ١٤١٥.

٢- أساس البلاغة: جار الله أبي القاسم محمد بن عمر الزمخشري، دار المعرفة – بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٣- أصول الحوار: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

٤- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٥- الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة: يحيى بن محمد حسن زمزمي، الناشر دار التربية والتراث – مكة المكرمة ورمادي للنشر – الدمام، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٦- صحيح البخاري: لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ١٣ سلسلة الكتب العلمية جهاز الإرشاد والتوجيه بالحرس الوطني، دار السلام – الرياض، الطبعة الثانية محرم ١٤٢١هـ.

٧- صحيح مسلم: لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، ١٤ سلسلة الكتب العلمية – جهاز الإرشاد والتوجيه بالحرس الوطني – دار السلام – الرياض، الطبعة الثانية، محرم ١٤٢١هـ.

٨- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، الطبعة العاشرة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، بيروت – القاهرة.

٩- الكشاف: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الطبعة الأخيرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - بمصر القاهرة.

١٠- لسان العرب: لأبي الفضل جمالي الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر – بيروت.

١١- مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني: د. أحمد سليمان البشايره، بحث مطبوع على الآلة الكاتبة.

١٢- معجم المقاييس في اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا – دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥.

١٣- منهج القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية: د. ليلى بنت صالح الزامل، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في كلية التربية للبنات بجدة ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، إشراف د/ علي بن محمد الشريف (غير مطبوعة).

١٤- منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم وتطبيقاتها التربوية: د. خليل بن عبد الله الحيدري، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.